

منبر المحراب

بين التملق والمدارة

السنة الخامسة عشرة
العدد ٨٠٨ - ١٩٠ / ذو القعدة / ١٤٢٩ هـ
الموافق ١٨ تشرين الثاني / ٢٠٠٨ م

محاور الموضوع الرئيسية:

- التملق والمداينة والمدارة
- أهمية المدارة في حياة الناس
- كيفية المدارة
- الفرق بين مفهومي التفاف والمدارة

الهدف: التعرف الى مفاهيم التملق

والمداينة والمدارة، وكيفية الاستفادة من أسلوب المدارة في التعامل مع الآخرين.

تصدير الموضوع: عن الإمام

الصادق عليه السلام أنه قال: جاء جبرائيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: (يَا مُحَمَّدُ رَبُّكَ يَقْرِيكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ دَارَ خَلْقِي) الكافي ج ٢ - باب المدارة - ح ٢

١- التملق والمداينة والمدارة:

التملق هو أن تداهن وتتودد الى صاحب نفوذ معين إما اتقاء لشره أو لتدعيم مكانتك لديه أو اكتساب صلاحيات ومزايا لا تستحقها، وغالباً على حساب آخرين أكثر استحقاقاً، وينتشر التملق كأسلوب حياة في العالم كله، ولكن بدرجات مختلفة. وهو أسلوب انتهازي رخيص يأخذ اشكالا عديدة لدينا كعرب إذ يمكن ان يتحقق عن طريق الإطراء الزائد لصاحب النفوذ واضفاء الكثير من الخصال التي لا يستحقها عليه كأن تقول له ما اذكاك وانت تراه ينضج غباءاً، او ان تقول له لسانك «ينقط عسلاً» كما نقول في مصر والكل يشهد بأن فاه لا يخرج الا حجارة «ودبشا» وقد يأخذ التملق شكل المبادرة بتقديم خدمة معينة او تقديم هدية عينية او ذم شخص تشعر ان صاحب النفوذ يكرهه وهكذا. والتملق ليس من أخلاق المؤمنين كما ورد عن الإمام علي



بن أبي طالب عليه السلام حيث قال: «لَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ التَّمْلُقُ وَالْحَسَدُ إِلَّا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ» (مستدرك الوسائل ١٢-١٩ -٥٥- باب تحريم الحسد ووجوب اجتنابه) والمداينة: أن يتنازل المرء عن شيء من دينه ليحافظ بذلك على دنياه أو عرضه.

ومدارة الناس هي حسن صحبتهم، وعدم مجابتهم بما يكرهون، و حيث إن عقول الناس مختلفة ومتفاوتة فمدارة الناس أن تتعامل معهم على قدر عقولهم أيضاً. والمدارة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، وترك الإغلاظ لهم في القول.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله «مدارة الناس نصف الإيمان والرفق بهم نصف العيش»... (الكافي - ج ٢ - باب المدارة - ح ٥). وهي من أحمد الخلال كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «المدارة أحمد الخلال» (غرر الحكم ١٢١٣).

والفرق بين المداينة والمدارة: أن المداينة «هي ترك ما يجب لله من الغيرة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لغرض دنيوي، والاستئناس بأهل المعاصي ومعاشرتهم، ومؤاكلتهم ومشاربتهم ومجالستهم، وعدم الإنكار عليهم مع القدرة على الإنكار؛ استجلاباً لمودتهم ومحبتهم، وإرضاء لهم، ومسالمة لهم وعدم التمييز بين طبقاتهم، لأنهم رأوا أن السلوك مع الناس، وحسن الخلق ونيل المعيشة، لا يحصل إلا بذلك». والمداينة أمر منهى عنه لما فيه من التنازل عن الأمور الدينية لصالح أمور دنيوية.

بينما المدارة: «هي درء الشر المفسد بالقول اللين وترك الغلظة، والإعراض عن الشرير إذا خيف شره، أو حصل منه ضرر

أكبر مما هو متلبس به». وكذلك السكوت عن بعض المخالفات بقصد التصدي لها في وقت أنسب على أن لا يكون هذا السكوت مضراً بدين الشخص. والمدارة أمر مشروع لأن فيه دفعاً للشر ومحافظة على الدين.

٢- أهمية المدارة في حياة الناس:

أودع الله تعالى في بني الإنسان تمايزاً وتبايناً في المزاج والطباع والفهم والإدراك. وبذلك سهّل على المتميّز منهم سلوك سبيل المدارة ولين الكلمة لتسهيل سبل المعاملة والعيش المتبادل. ولما كانت العلاقات الاجتماعية بين الناس يطبعها أسلوب التعاون والتآزر فإن ممارسة «المدارة» أمر طبيعي يفرضه السلوك الأخلاقي الذي يمارسه الإنسان مع أخيه الإنسان.

والمدارة لغة من درأ يدرأ أي دفع، فكل ما يدفعه الإنسان عنه فقد درأه ومنه الحديث «ادروا الحدود بالشبهات» عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ اللَّهُ، وَخُلِقَ يَدَارِي بِهِ النَّاسَ، وَحَلِمَ يَرُدُّ بِهِ جَهْلَ الْجَاهِلِ» (الكافي ج ٢ - باب المدارة - ح ١).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: (أَمَرَنِي رَبِّي بِمُدَارَةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ) (الكافي ج ٢ - باب المدارة - ح ٤).

من خلال الروايات الشريفة تتضح لنا أهمية «المدارة». ففي الحديث الأول اعتبر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله المدارة من الخلق الذي يحتاجه المؤمن في تعامله مع أفراد مجتمعه. وهذا في غاية الأهمية، إذ وجود علاقة حميمة بين الناس يساهم في بناء مجتمع خال من العصبية والمشاكل والاعتداء على الآخر، ويؤمن فرصة

إليه يصعد الكلم الطيب

السعادة لبنيه. وفي الحديث الثاني قرن بين مداراة الناس وأداء الفرائض، وهذا في غاية الأهمية، فعبادة الله تعالى وأداء الفرائض له يلازمها مداراة الناس إذ لا قيمة لعبادة وامتثال للفرائض دون الاهتمام بالخلق والناس ومراعاة حقوقهم. فمن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: «دار الناس تستمتع بإخائهم، والقهم بالبشر تمت أضغانهم» غرر الحكم ٥١٢٩

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ مَدَارَاةُ النَّاسِ فِي غَيْرِ تَرْكِ الْحَقِّ» (٥).

ونظراً لتأثيرها المباشر على سلوك الإنسان وتفاصيل حياته اليومية الخاصة والعامة، وحاجاته إليها في مختلف المواقع اعتبرت المداراة ثمرة العقل وعنوانه ورأس الحكمة كما جاء في مجموعة من الروايات. عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: «ثمرة العقل مداراة الناس» (غرر الحكم ٤٦٢٩) و«عنوان العقل مداراة الناس» (غرر الحكم ٦٢٢١). و«رأس الحكمة مداراة الناس» (غرر الحكم ٥٢٥٢).

٣- من فوائد المداراة:

المداراة.. تغسل الضغينة من قلب الآخر.. تكتس سخام الحقد في نفسه.. القه بوجه منبسط مبسّم... سلّم عليه... سلامك سكن له... في المرة الأولى قد ينظر إليك بارتياح... في المرة الثانية قد يحسبك أخطأت الهدف... في المرات القادمة سيعرف أنك صادق معه!

- **السلامة من المكائد:** عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: «دار الناس تأمن غوائلهم، وتسلم من مكائدهم» (غرر الحكم ٥١٢٨).

- **سلامة الدين والدنيا:** عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: **سلامة الدين والدنيا في مداراة الناس** (غرر الحكم ٥٦١٠).

- **أمن المحارب:** وعنه (عليه السلام): من دارى أضداده أمن المحارب (غرر الحكم ٨٥٣٩).

٤- كيفية المداراة:

تتمظهر المداراة في سلوك الناس وتعاملاتهم اليومية في القول والفعل والتقدير، ويمكن جمع أغلب هذه المصاديق في العناوين الآتية:

أولاً: تكليم الناس على قدر عقولهم. عن رسول الله ﷺ قال: «إنّا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم» (الكافي ج ١ - ح ١٥)

ثانياً: عدم تحميل الناس تكاليف و أعباء فوق طاقتهم.

ثالثاً: التدرّج معهم في هدايتهم للحق. قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه، ٤٤)

رابعاً: أن يتحدّث المكلف بكلام مفهوم من قبل الجميع بلا حاجة إلى استخدام العبارات الغامضة، والمصطلحات غير الواضحة. عن أمير المؤمنين - عليه السلام -: **أحسن الكلام ما زانه حسن النظام، وفهمه الخاص والعام** (غرر الحكم ٣٣٠٤).

خامساً: ومن المداراة اختصار الكلام وعدم التلويل المؤدي إلى الملل، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): **الكلام كالدواء قليله ينفع وكثيره قاتل** (غرر الحكم ٢١٨٢).

سادساً: من المداراة كشف الحقائق في حال التشكيك بشخصك، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) - في وصيته لمالك الأشر - «وان ظننت الرعية بك حيفاً، فأصحر لهم بعدرك، وأعدل عنك ظنونهم بإصهارك، فان تلك رياضة منك لنفسك، ورفق منك برعيتك، وإعذار تبلغ فيه حاجتك من تقويمهم على الحق» (نهج البلاغة - عهد أمير المؤمنين لمالك الأشر)

سابعاً: عدم المجادلة إلا بالتي هي أحسن.

ثامناً: عدم المحاسبة على كل كبيرة وصغيرة، فإن محاسبة الناس على كل صغيرة وكبيرة نتیجته المتوقعة أن لا يبقى أحد لديك لا تحاسبه...

تاسعاً: إغماض العين عن بعض العيوب والأخطاء... تلطف في الصحبة والمعاشرة.. هو مداراة...

عاشرًا: التكلّم مع الشخص الذي تختلف معه بموّد أو برفق، ودون انفعال وتشنّج... ضمان لك في أن تجتذبه إليك وتكسبه إلى صفك..

٥- الفرق بين مفهومي النفاق والمداراة:

- إذا أطلق لفظ النفاق فإنه يستوحي معاني الشر كلها، ولم يكن النفاق يوماً محموداً ولو من وجه ما، ويعرّفه علماء السلوك بأنه إظهار الخير للتوصل إلى الشر المضمّر. فالمنافق لا يبتغي الخير أبداً، وإنما يسعى للإضرار بالناس وخيانتهم وجلب الشر لهم، ويتوصل إلى ذلك بإظهار الخير والصلاح، ويلبس لبوس الحب والمودة.

- أما المداري (وهو المُجامل أيضاً) فلا يُضمر الشر لأحد، ولا يسعى في أذية أحد في ظاهر ولا في باطن، ولكنه قد يظهر المحبة والمودة والبشر وحسن المعاملة ليتألف قلب صاحب الخلق السيء، أو ليدفع أذاه عنه وعن غيره من الناس، ولكن دون أن يوافقته على باطله، أو يعاونه عليه بالقول. قال الله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. وأسمع الناس يعدون من يظهر خلاف ما يبطن منافقا، فكيف لي بطاعة الله تعالى والتخلص من النفاق؟

فه النفاق هو: إظهار الجميل، وإبطان القبيح، وإضمار الشر مع إظهار الخير لإيقاع الشر، والذي تضمنته الآية: إظهار الحسن في مقابلة القبيح لاستدعاء الحسن.

ولذلك كانت المداراة من الأخلاق الحسنة الفاضلة، ومن أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة.

